مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السادس
1989م.

غارات نورمان صقلية على موانئ شمال أفريقيا

الأستاذ : رضا عبد المبروك خليفة
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

سهّل على رُجار الثاني ملك جزيرة صقلية غزو موانىء إفريقية حالةُ الضعف والتفكك السائدة هناك بسبب الفرقة والمنازعات . ومما حفزه على غزو هذه الموانىء أيضاً أن المسلمين ما فتئوا يغيرون منها على مراكب النورمان في البحر المتوسط وعلى سواحل صقلية إذ لم ينسوا ضياع صقلية من أيدي المسلمين ، تماماً كما حدث بعد ذلك بأربعة قرون بالنسبة لمراكب الأسبان وسواحل الأندلس على أيدي العرب النازحين من الأندلس ، كذلك فعل النورمان في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بالنسبة لموانىء شمال إفريقيا من طرابلس شرقاً حتى برشك غرباً . إن النورمان بعد أن سيطروا على جزيرة صقلية من أيدي المسلمين سنة (484 هـ/1091 م) كانوا يطمحون في بسط نفوذهم على مدن شمال إفريقيا ، منتهزين فرصة ضعف إمارة بني زيدي في المهدية ، وانشغال المرابطين في مواجهة الموحدين ، وضعف الدولة الفاطمية في مصر ، وقيام الحروب الصليبية في المشرق[1] .

(1) أمين الطيبي : « جوانب من الحياة الاقتصادية في المغرب في القرن السادس الهجري/الحادي عشر الميلادي من =

ويُقصد بالحروب الصليبية بالمعنى الضيِّق الحملاتُ التي شنَّها الغربُ المسيحي - بتحريض من البابا أوربان الثاني في رومة - في الفترة ما بين عامي 1096 م و 1291 م لانتزاع فلسطين وبيت المقدس من أيدي العرب المسلمين ، إلا أن المجابهة بين الإسلام والمسيحية بدأت في الواقع منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي ، واشتدَّتْ قُبَيْل بدء الحروب الصليبية في المشرق في أواخر القرن الحادي عشر . ويدخل ضمن هذه الحروب استيلاءُ الروم البيزنطيين على جزيرتيْ كريت (961 م) وقبرص (965 م) ، وتوغلُهم في شمال بلاد الشام منذ منتصف القرن العاشر الميلادي . كما أن استيلاء النورمان - بمباركةٍ من البابا في رومة - على مدينة بَرْبَشْتَرَ بأقصى شمال الأندلس عام 1064 م والفتك بسكانها فتكاً ذريعاً حملةً صليبيةً حقيقيةً سبقتْ حملات الشرق بثلاثين عاماً .

إن استيلاء المسيحيين الإسبان - بمشاركة الرهبان والمتطوعين من فرنسا - على مدينة طليطُلة الأندلسية عام 1085 م كان حملةً صليبية ، وكذلك غارةُ البيزيين والجنويين الإيطاليين - بمباركةٍ من البابا - على مدينة المهدية بالبلاد التونسية عام 1087 م ، وما صحبها من تقتيلٍ ونهبٍ للأموال . وعلى ذلك فإن كافة الحملاتِ المسيحية في القرن الحادي عشر الميلادي ضد أرض الإسلام شرقاً وغرباً هي حروب صليبية .

ويوجز المؤرخ ابنُ الأثير (توفي عام 1233 م) قيامَ الحروب الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي فيقول : « كان ابتداءُ ظهور دولة الفرنج واشتدادُ أمرهم وخروجُهم إلى بلاد الإسلام واستيلاؤهم على بعضها سنة 478 هـ [1085 م] فملكوا مدينة طليطُلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . ثم قصدوا سنة 484 هـ [1091 م] جزيرة صقلية وملكوها [أي النورمان من جنوب إيطاليا] . . . وتطرَّقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً [المهدية سنة 543 هـ/1148 م] وأُخذ منهم . . . فلما كانت سنة 490 هـ [1096 م] خرجوا إلى بلاد الشام »[2] . إن هذه الأحداثَ التي يشير إليها ابنُ الأثير تمثل هجماتٍ مسيحيةً صليبيةً على كافة أرض الإسلام من الأندلس غرباً إلى الشام شرقاً ، مروراً بجزيرة صقلية وشمال إفريقيا .

= خلال رسائل جنيزة القاهرة » ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز دراسات الجهاد الليبي ، السنة السادسة ، العدد الثاني ، يوليو 1984 ، ص 447 .

(2) علي بن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1980 ، ص 185 .

1 ـ إخفاق النورمان في الاستيلاء على مدينة طرابلس (537 هـ/1142 م):

كان من سُنَّة المسلمين منذ بداية الفتوح الإسلامية إقامة الرباطات بمحاذاة سواحل الشمال الإفريقي ، يعبدون فيها الله ويقيمون شعائر الدين ، ثم يحملون السيف لحراسة الوطن من العدو المتربص به من وراء البحر . وقد أصبحت تلك الرباطات مركزاً لقوافل التجارة ودوراً للعلم . يقول عبد الواحد المراكشي في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي : « وما بين الإسكندرية وطرابلس الغرب حصونٌ متقاربة جداً ، فإذا ظهر في البحر عدوٌ نوَّر كلُّ حصن للحصن الذي يليه ، واتصل التنوير ، فينتهي خبرُ العدو من طرابلس إلى الإسكندرية أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم . . . »[3] . وبفضل هذه المحارس على طول ساحل شمال إفريقيا ازدهرت الحياة الزراعية والتجارية وظهرت بعض المدن الكبيرة التي أصبحت مراكز تجارية ، ومنها طرابلس التي أصبحت مطمعاً من مطامع النورمان لكي يتموا تحقيق أغراضهم السياسية والدينية والاقتصادية إذ أن الأحوال الداخلية في إفريقية الزيرية لم تكن تخفى على النورمان في صقلية ذلك لأن رُجار الثاني ، صاحب صقلية ، كان قد بث عيونه فيها فكانوا يوافونه بأخبارها مفصلة[4]. بالإضافة إلى أن قائد أسطوله جورج الأنطاكي كان قد نشأ وعمل في خدمة بني زيري في المهدية ، فكان لذلك حسن الدراية بطبوغرافية الساحل ومدنه[5] . وكان الاستيلاء على ميناء طرابلس أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لرجار الثاني بالنظر إلى موقعها الحيوي . ورأى رجار أن الفرصة مواتية له لتحقيق غايته عندما علم أن أبا يحيى رافع بن مطروح قد أعلن استقلاله عن الأمير حسن بن علي الزيدي في المهدية[6] . لذلك أرسل رجار الثاني أسطولاً لمهاجمة طرابلس في

---

(3) عبد الواحد .المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، الدار البيضاء 1978، ص 491 .

(4) أبو عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، ط٢ تصحيح وتعليق الطاهر الزاوي طرابلس ، ليبيا 1967، ص 50 .

(5) أمين الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس 1984، ص 116 ، حاشية 38 .

(6) عبد اللطيف محمد البرغوثي : تاريخ ليبيا الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني ، نشر الجامعة الليبية ، بيروت 1971، ص 363 .

التاسع من شهر ذي الحجة سنة537هـ (25 يونيو 1143 م) .يقول ابنُ الأثير: «وفي هذه السنة [537 هـ/1143 م] سارت مراكب الفرنج [النورمان] من صقلية إلى طرابلس الغرب فحاصروها . وسبب ذلك أن أهلها في أيام الأمير الحسن صاحب إفريقية [تونس الحالية] لم يدخلوا أبداً في طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاقين له ، قدَّموا عليهم من بني مطروح مشايخ يديرون أمرهم ، فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهز إليهم جيشاً في البحر فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجة [25 يونيو 1143 م] فنزلوا البلاد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب في سور، ونقبوه . فلما كان الغد ، وصل جماعة من العرب [عرب بني هلال] نجدة لأهل البلد ، فقوي أهل طرابلس بهمَ فخرجوا إلى الأسطول فحملوا عليهم حملة منكرة . فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ، ولحق الباقون بالأسطول ، وتركوا الأسلحة والأثقال ، والدواب والآلات ، فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقلية . . . »[7] .

هكذا فإن هذه الحملة باءت بالفشل الذريع إذ لم يتمكن النورمان من الاستيلاء على المدينة لحصانتها ، ويبدو أن بني مطروح قد أعدوا أثر هذا العدوان العدة للدفاع عن أنفسهم ، هذا بالإضافة إلى دور القبائل العربية من بني هلال وبني سليم حيث إنها قامت بدور بارز في نجدة سكان طرابلس ودحر المغيرين النورمان ، وهذا يتضح من كلام ابن الأثير . كما رجع الأسطول النورماني إلى صقلية يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة . ثم عزم رجار الثاني على محو عار هزيمته في طرابلس سنة 537 هـ/1143 م ، فقام بعد سنتين ـ أي في سنة 539 هـ/1144 م ـ بالإغارة على مدينة طرابلس في قوة صغيرة للتمويه[8]. وقد أشار ابن الأثير إلى هذا الهجوم تحت أحداث سنة 539 هـ/1145 م فقال : « كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سريَّة في البحر إلى طرابلس الغرب . . . فنهبوا وقتلوا . . . ففي أحد الأيام كان [رجار الثاني] جالساً في مَنْظرةٍ تُشرف على البحر وإذ قد أقبل مركب . . . وأخبره من فيه أن عسكره دخل بلاد الإسلام [مدينة طرابلس الغرب] وغنموا وقتلوا . . . »[9] . يبدو أن الهجوم على طرابلس كان مفاجئاً وخاطفاً ، كما يبدو

---

(7) ابن الأثير : 9، ص 6 .

(8) السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1969، ص 216 .

(9) ابن الأثير : 9، ص 9 .

أن رجار الثاني كان يشنُّ حروباً صليبية على مدن شمال إفريقيا مشاركة منه في الحروب الصليبية التي تجري في المشرق .

2 ـ مهاجمة جيجل والعيث فيها (537 هـ/1143 م) :

لما عاد الأسطول النورماني إلى صقلية على أثر الهزيمة التي لحقت به في طرابلس سنة 537 هـ/1142 م حمل بعض المؤن ، واتجه إلى جيجل شرقي مدينة بجاية وكانت تتبع إمارة بني حماد أصحاب القلعة . وكان حظ هذا الأسطول أكثر توفيقاً في جيجل منه في طرابلس إذ تمكن من إنتزاعها عَنْوة ، وسفك النورمان دماء أهلها وسَبَوْا حريمها وأحرقوها بالنار[10] . يقول ابن الأثير : « . . . ورجع الفرنج [من طرابلس] إلى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا »[11] . من هذا يتضح أن النورمان كان هدفهم الوحيد محو عار الهزيمة التي لحقت بهم في طرابلس وليس الاستيلاء على جيجل ، حيث إنهم اكتفوا بالنهب والسلب والسبي والتخريب ، ولم يقيموا في المدينة بل عادوا إلى صقلية . ويلاحظ أن هناك اختلافاً بين روايتي ابن أبي دينار وابن الأثير ، حيث قال الأول : وسفك النورمان دماء أهلها وسبوا حريمها[12] ويعني كل الحريم دون استثناء . بينما قال الثاني : فلما شاهد أهل البلد النورمان في البحر فروا خارج المدينة إلى البر واعتصموا بالجبال الوعرة من العدو ، ودخل النورمان المدينة وسبوا من وجدوا فيها ، وهو يعني العجزة الذين لم يستطيعوا الصعود إلى الجبال[13] . وعلى أية حال ، فإن السبي والتخريب والحرق بالنار وقع ، وهو ما اتفق عليه المؤرخان . ومدينة جيجل على ضفة البحر المتوسط ، ولها ربض ، والبحر يحيط بها ، ولما خرَّبها النورمان بنى السكان لهم مدينة حصينة على قمة الجبل فكانوا إذا حلَّ فصل الشتاء سكنوا المرسى والساحل ، وإذا حلَّ فصل الصيف ووقت وجود أسطول العدو النورماني في البحر ، انتقلوا إلى مدينتهم التي

---

(10) محمد ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1967، ص 93 .

(11) ابن الأثير : 9، ص 6 .

(12) ابن أبي دينار ، المصدر السابق : ص 93 .

(13) ابن الأثير : 9، ص 6 .

على قمة الجبل . وهي مدينة زراعية حيث يوجد بها السمن والعسل والزراعة والأسماك[14] . لقد تأثر أهل جيجل بغارات النورمان عليهم . كما يبدو أن المدينة ذات موقع حيوي هام على البحر المتوسط كما أنها كانت ذات أهمية من الناحية الاقتصادية لوفرة الغلاف الزراعية والثروة الحيوانية والسمكية ، إلا أنها كانت مهملة غير محصَّنة من قبل بني حماد ، مما سهَّل على النورمان غزوها وتخريبها وترك أهلها لها . والذي يدلنا على أهمية المدينة هو أن أهلها كانوا يعودون إليها في فصل الشتاء حينما يكون البحر غير صالح لسير السفن فيه ، وبهذا يكون أهلها مطمئنين من خطر هجوم العدو النورماني وبهذا كانت لهم رحلة الشتاء والصيف بين جيجل وبين المدينة المحصنة على قمة الجبل .

ومما زاد حالة إفريقية سوءًا أن بعض عمال بني زيري صاروا يستعينون برجار الثاني ضد أمراء بني زيري تمكيناً لانفسهم من الاستقلال بأعمالهم كما فعل رافع بن مكي عامل بني زيري على قابس ، إذ تمكن رافع هذا من الاشتغال بإظهار أبهة الملك ، فبسط كفه للشعراء فاقبلوا على بلاطه ، وأهتم ببناء القصور حيث أكمل بناء قصر العروسين . وذكر التجاني أنه وجد عليه كتابة جاء فيها « أمر بعمل هذا الباب الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكي بن كامل بن جامع في رجب سنة 500 هـ [1107 م]»[15] . وفي الوقت نفسه أمر ببناء نواة لأسطول بحري ، وحرص على بناء سفينة ضخمة بساحل قابس حيث أمدَّه يحيى بن تميم بما احتاجه من مواد لبنائها، فكانت هذه السفينة سبباً في نكبته إذ اشتعلت نار الفتنة بينه وبين علي بن يحيى صاحب المهدية الذي أنف أن يكون لأمير بجواره أسطول يشاركه وقال : « لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناويني في إجراء المراكب في البحر . . . »[16] . ليس الأمر مجرد أنفة وكبرياء ولكنه أراد احتكار التجارة البحرية لنفسه فوقف ضد رافع وطموحه البحري ، مما أغضب رافعاً فلجأ إلى رجار الثاني وطلب مساعدته فوعده بذلك . ويضيف التجاني قائلاً : « وعلم رافع بذلك فكتب لرجار صاحب صقلية يسأله الإعانة على علي ويخبره أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يحب أن

---

(14) محمد الإدريسي : القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، مستخرج من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، تحقيق إسماعيل العربي ، دار المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983، ص 168 — 169 .

(15) عبد الله التجاني : رحلة التجاني ، ط٢ ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس 1981، ص 95 .

(16) ابن الأثير : 9، ص 278 .

يهديها إليه ، فبعث رجار إلى قابس أسطولاً ضخماً لنصرة رافع . . .»[17] . لقد كانت تلك السفينة إذن سبباً في محنة قابس والمهدية معاً . ويظهر أن رافعاً كان من الذين لا يملكون وازعاً وطنياً ولا دينياً . فلم يكد ينكر عليه علي بن يحيى بناء السفينة حتى استنجد برجار الثاني صاحب صقلية المتربص بإفريقية ، وقدَّم الطاعة له وطلب حمايته . وكان رجار يتحين فرصة كهذه لكي يثبِّت أقدامه على سواحل شمال إفريقيا .

3 - مهاجمة النورمان لمدينة برشك (539 - 540هـ / 1144 - 1145م) :

بعد أن هاجم النورمان مدينة جيجل وقاموا بتخريبها تحولوا إلى مهاجمة مدينة برشك وهي تقع غرب الجزائر بحوالي 200 كيلو متر ويؤكد هذا الهجوم هادي ووجر إدريس فيقول : « وفي نفس السنة [539 هـ/1144 م] أخذ النورمان برشك وهي تقع بين شرشال وتنس [أي غرب الجزائر العاصمة] فقتلوا سكانها وبيعت نساؤها وأطفالها لمسلمي صقلية . . .»[18] . من هذا يتضح أن المدينة كانت مهملة من قبل أمراء بني حماد رغم موقعها الحيوي الهام . كما يتضح أن أهلها لم يقوموا بأية مقاومة تذكر . ومن أين لهم بهذه المقاومة وهم لم يكونوا على دراية بالقتال ، مما سهَّل على الغزاة مهاجمة المدينة . ويضيف الإدريسي فيقول : « ومدينة برشك مدينة صغيرة على تل ، وعليها سور تراب ، وهي على ضفة البحر ، وشراب أهلها من عيونٍ ماؤها عذب وافتتحها الملك . . . رجار في سنة 500 هـ [الصحيح هو سنة 539 هـ/1144 م] ، وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير »[19] . من هذا يتضح أيضاً أن المدينة كانت مهملة وغير محصنة بالرغم من خصوبتها وما بها من مزارع للفواكه والحبوب وبخاصة القمح والشعير ، وبالرغم من موقعها الحيوي الهام على البحر مما حفز النورمان على مهاجمتها .

وهكذا تميزت الفترة التي تقع بين سنة 537 هـ/1142 م وسنة 540 هـ/1146 م بنشاط عظيم من جانب أسطول النورمان ، ولكن هذا النشاط لم يكن موجهاً في هذه المرة إلى بني زيري بل إلى عمالهم السابقين والذين ثاروا عليهم مثل بني مطروح بطرابلس وبني

---

(17) عبد الله التجاني ، المصدر السابق ، ص 99 .

(18) H.R. Idris, **La Berbérie Orientale Sous les Zirides**, 2 Vols., Paris 1959, p. 345.

(19) الإدريسي ، المصدر السابق : ص 158 .

حماد في بجاية[20] . ولا يعرف ما إذا كان هذا العمل راجعاً إلى طلب الحسن بن علي الذي لم يكن قادراً على إخضاع بني مطروح بطرابلس وبني حماد في بجاية وإبقائهم تحت سلطانه ، أو إلى تفكير رُجار الثاني وهو الأرجح . ومهما يكن من أمرٍ ، فإن الأسطول النورماني بدأ ينفذ مخطط رجار التوسعي في شمال إفريقيا .

(20) أمبرتو ريتسيتانو : « النورمنديون وبنو زيري من الفتح النورمندي لصقلية حتى وفاة رجار الثاني (453 — 548 هـ/1061 — 1154 م) » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة السنة الثانية ، 1949، ص 187 .